للجدران آذان

طرق باب منزلنا، فإذا بشقيقتي كعادتها أتت لزيارة والدتي تحمل في جعبتها روائح جدران حارتها من قصص تتناقلها السنة نساء الحارة، أعشق تلك القصص وهما تتبادلان الحديث همساً كل ليلة، وكأي ليلة يثير حديثهما فضولي، أتخفى وأتصنت عليهما، فيحاولان إخفاء بعض الكلمات والتفاصيل عني، في تلك الليلة دار الحديث بينهما عن ليلى، ليلى هي جارة شقيقتي وكل حكايةٍ بين نساء الحارة تدور حالياً عن ليلى، ليلى كانت مدللة أبويها وابنتهما الوحيدة، كان حلم والدها أن يراها بالفستان الأبيض قبل أن تتوفاه المنية، لكن ملك الموت لم يمنحه تلك الفرصة.

بعد وفاة الوالد لم يعد للأسرة مصدر دخل، عملت والدة ليلى كل ما بوسعها لتحقيق حلم والدها، حتى أتمت الإبنة تعليمها ودخل بيتها الرجل الذي دعت والدتها الله به، أصرت والدة ليلى على أن تكون شقة الزوجية بجوار بيتها، وبالفعل نفذ العريس مطلبها ليفوز بقلب ليلى.

مرت الأيام وأصبح لزوج ليلى عمل ومصدر رزق في التأمينات حتى بلغ مرتبه أضعاف ما كانت تحلم به أسرة ليلى.

عاشت ليلى حياة سعيدة مع زوجها تحسدها عليها كل بنات الحارة، شهد المحل الذي كانت تشتري منه ليلى ملابسها وملابس اطفالها رواجاً كبيراً نظراً لتردد كل نساء الحارة عليه، كل واحدة فيهن تريد أن يدفع لها زوجها لتشتري نفس خامات الملابس التي تستخدمها ليلى ونفس المفروشات المستوردة، حدثت صداقة بين ليلى وصاحبة المحل، والسبب أن ليلى لاحظت تغييراً في زوجها، فقد صار يأتي متأخراً عن موعده، تغيرت معاملته معها، كانت السيدة صاحبة محل الملابس ناصحة ومتدينة وحافظة للأسرار وكتاب الله وهي دائماً ما توجه ليلى لأن تغض النظر عن الموضوع حتى تتأكد من ظنونها، لم تفصح ليلى لوالدتها بشيءٍ مما حدث، كي لا تثير شجونها وقلقها عليها، لأنه كلما حدث شجار بين ليلى وزوجها تنصحها والدتها بأن تترك له المنزل وتأتي بأبنائها الأربعة إليها.

في يوم من الأيام تحدث زوج ليلى إليها بصراحة، وقال لها أنه سيتزوج عليها من ثانية، علا صوت ليلى، وعلمت والدتها بالأمر، وبعد محاولات مريرة معه وسط تهويل للأمر من والدتها أصر الرجل على الزواج.

وفي زيارة غير متوقعة من ليلى لصاحبة المحل جلست ليلى تشكو وتبكي لسيدة المحل.

قالت لها الشيخة سيدة المحل: "يا ابنتي هذا شرع الله لماذا تبكين؟".

ولكني تحملته كثيرًا وعشت معه على الحلوة والمرة؟ .. ماذا ينقصني كزوجة ليتزوج عليّ بأخرى؟.

أنصحك أن لا تطلبي منه الطلاق حتى ولو تزوج عليكِ بأربعة.

أضحت ليلى منكسرة الخاطر محروقة الفؤاد، والنسوة يتحدثن عن خطبة الرجل، ورغبته في الزواج على ليلى من راقصة.

همست والدتي بتعجب في أذن شقيقتي: راقصة؟!

أيوه يا أمي والله راقصة في كباريه، تفتعل الشرف وتشتري ملابسها من نفس المحل الذي كانت تشتري منه ليلى ملابسها، وقالت للشيخة صديقة ليلى، صاحبة المحل: "هاتيلي أحسن فستان عندك".

فأتت لها بأجمل فستان في المحل ، قالت لها: هذا لا يجديني "أريد فستان مسخسخ".

استغفر الله العظيم يا رب، ومن أين عرف هذه الراقصة أو وجدها يا بنيتي؟.

يقولون ليس لها أهل وتدعي أنها "بنت ناس"، وكل من يسألها: "من أين لكِ بهذه العباءة المطرزة تخبرهم أن شقيقها إبتاعها لها من أرقى مكان في القاهرة".

ولقاها فين دي يا بنتي ولا لفت ودارت عليه إزاي؟!.

همست شقيقتي وقالت بصوت خافت: "كانت متزوجة قبل أن تلقاه، قالت له أنها طلقت من زوجها السابق لأنها لم تنجب منه، وماذا عساها تفعل كمطلقة سوى أن تحتال عليه بتلك الحيلة؟! .. لفت ودارت على زوج ليلى .. وجدته غني ومبسوط .. وقع الرجل في حبها، وبررت له طلاقها بعدم الخلف".

لكنها سيدة حرباء، وليست سهلة، ولطالما قرر زوج ليلى الارتباط بها إذاً فلقد وجدها شريفة، لأنها إن كانت امرأة رخيصة ما كان ليتجوزها، والله أعلم يا بنيتي!.

لقد سمعت النساء يا أمي يقلن أنها مخادعة، ولقد خدعت بالفعل الرجل.

وماذا بعد؟

بعدما تزوجها يا والدتي إعتقادًا منه بأنها لن تنجب .. حملت منه، وأنجبت أحمد، "وأحمد هوا اللي هنا واللي هناك"، وكأنه لم ينجب سوى أحمد.

وماذا عن ليلى؟!.

بالطبع ليلى طلبت الطلاق، ولم تأخذ بنصيحة السيدة صاحبة المحل وسارت وراء تحريض والدتها حيث قالت لها اطلبي الطلاق منه وتعالي معي للعيش بكرامة ومن الغد سيأتيكِ الأفضل منه بمليون مرة.

ليلى تركت شقتها؟!

نعم، تركت له الجمل بما حمل وقالت: "كرامتي"، وراحت في كنف والدتها بعدما ترجاها الرجل قائلاً: "يا ليلى خليكِ معي وأنا سأعطيكِ كل حقوقك"، قالت له: "لا .. طلقني وأصرت على الطلاق".

هي مخطئة يا بنتي؛ لأنها غادرت بيتها، وكان عليها الإستمرار مع زوجها حتى تخرب على تلك الراقصة زيجتها منه.

نعم، ولكن لا يجدي الندم.

ثم بالكاد سمعتهما تهامسان؛ فقالت إحداهن للأخرى: أخفضي صوتك، للجدران آذان، ليلى تعرفت على رجل زوجته متوفية ومعه طفلته اليتيمة، الناس كلهم علموا بالخبر، وتخلى عنها ذلك الرجل بعد لقاءات عام بأكمله، بعدها اتصلت ليلى بزوجها وقالت له أنها يمكنها مسامحته والعودة إليه .

جاءها منه اتصال الثانية فجرًا: "يا ليلى، خلاص فات الميعاد، لم يعد ينفع".

استغفر الله العظيم يا بنيتي .. بلاش كلام عن الناس، ربنا يسهل لكل حي.

-هجرت ليلى منزل والدتها للبحث عن لقمة خبز لها ولأولادها طالما لم تتحملهم والدتها بمصاريفهم الباهظة، وحيث غادرت ليلى حارتنا؛ لم ينته الحديث عنها بعد..